المحاضرة الخامسة: الاتجاه الواقعي في الرّواية العربية

1-في مفهوم الواقعية:

أ- لغة: الواقعية من الواقع مُشتّقة من الفعل الثّلاثي(وقع، واشتقاقا" يقع، وقعًا، ووقوعًا: السّقوط، وإنزال الشّيء على الشّيء، وهذا ما يُفيده في الكلام حقيقة، كأن تقول: وقع الطّير على أرض أو شجر، أو وقع المطر على الأرض، أو وقعت الدّواب؛ أي: ربضت على الأرض... إلخ. ومنه قوله تعالى عزّ وجلّ: "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ"[1]. ويُقال -أيضا- : "وقَعَ على الشَّخصِ القصاصُ، أي وجَب(وقَع عليه اللَّومُ- وقَع العقابُ على المذنب: نزَل- وقَع الحقُّ عليه)، وهو ما نجده في الآية الكريمة "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ"[2]. أي إنزال العقاب على من ظلم.

ب- اصطلاحا:

اشتهرتْ وشاعتْ في العصر الحديث كلمات: الواقع، والواقعي، والواقعة، والواقعية، لا ككلمات لغويَّة لها دلالاتها المفردة، بل كاصطلاحات ومفاهيم مذهبيَّة في الأدب، والفنّ، والفلسفة، والسّياسة. فـ(الواقعية) (*Réalisme*) كاصطلاح مذهبي - ظهرت في لحظات التّحولات الاجتماعية والفكرية في الفكر الغربي، ضمن حركة الطّرد والاستبعاد للتصوُّرات التي تحلّل الحوادث والظّواهر وتُفَسّرها وفق منظور لاهوتي كنسي، أو مثالي طوباوي، وهوما نادى به أرسطو من قبل؛ داعيا إلى تحويل عيون الفلاسفة من السّماء إلى الأرض[3]، فقد شكّل هذا التّصوّر نهجا فلسفيا وفكريا لدى الفلاسفة الذين سعوا سعيا حثيثا لكبح آثار الرّؤى المثالية وعالم الميتافيزيقية التي سيطرت لردح من الزّمن.

فهي مجموعة متجدّدة منَ القِيَم المعرفيَّة والاجتماعية، تسعى إلى تحرير الإنسان منَ القيود اللاهوتيَّة، وإحلال الواقع الموضوعي المادي كمرجع وحيد للإنسان؛ يستمد منه قيمه وتصوُّراته، لتعيد للعقل الإنساني دوره، وتمجيده كقيمة عُليا، وجعل الإنسان صانعًا للتّاريخ وَفْقَ القانون العلمي القادر هو على اكتشافه في الواقع المادي المحسوس، من منطلق أنَّ الإنسانَ" الواقعي هو الذي يقبل التعامُل مع الواقع كما هو، ولا يرفضه تبعًا لعقيدته أو مرجعيته الفكريَّة، والذي تَتَحَدَّد علاقته بالواقع علاقة فهم

---

[1]- سورة النّمل: الآية82.

[2]- سورة النّمل: الآية85.

[3]- محمد حسن عبدالله، الواقعية في الرّواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر،ط1. 2005م،ص9.

واستيعاب، للاستفادة من المتاحات الموجودة فيه، وتطويره وفق ما يسمح به الواقع نفسه، وليس تغييره على مقتضى تصوُّر أيديولوجي سابق[1].

2- الواقعية في الأدب:

تباينت تيارات الفِكْر والسِّياسة والأدب في تعامُلها مع هذه النزعة المذهبيَّة بين ممثّل ومتبنٍّ لها، وبين مشكّكٍ ورافض، عند الغرب تميل إلى التّشاؤم، وتصوير رذائل المجتمع ومخازيه، مع حرص على تسجيل الأحداث بكل فطنة وميل إلى الأعمال الهزلية والسّخرية .أمّا الواقعية الشّرقية، فقد عارضت عنف الواقعية الغربية، رافضة أن يكون الإنسان بؤرة للشّرور والآثام، ولذا توصف الواقعية الشّرقية بأنّها أكثر تفاؤلاً من الغربية، وبرزت الواقعية العربيَّة مصوّرة للواقع كما ظنّوا، وبرزت أولاً في بعض القصص السّردية عند بعض الكتّاب، واستمروا على واقعيتهم من غير انغماس في مذهب الواقعية الفلسفي الشّرقي أو الغربي، ثم برزت الواقعية العربية مذهبًا واتجاهًا حينما "عالجت قضايا الإنسان المجرد، والعامل المكافح، والفلاح المقهور[2]".

اختلف مفهوم الواقعيَّة عند كثير منَ الأُدَباء والنُّقَّاد، فبعضُهم يذهب إلى أنّها تقوم على ملاحظة مظاهر الحياة وتسجيلها كما هي، بحيث يكون الأديب كعدسة مُصَور، فهو يحصر جهده في اختيار المشهد الذي يروقه ويقوم بتصويره، وبعضهم يضيف إلى ذلك أنَّ المناظر التي تحظى باهتمام عدسة الأديب الواقعي هي تلك التي تنبثق من مشكلات عامة النّاس وقضاياهم، وتبرز مآسيهم ومظالمهم.[3]

فهي بهذا المفهوم دعوة لتمثيل واقع الأشياء والطّبيعة كما هي[4].ولا يُقصد بالطّبيعة في هذه المقولة نسبتها إلى الطبيعة، من حيث مظاهر الحياة والفن والجمال، وإنّما يقصد بها التَّصْوير الصادق للواقع الإنساني، ولذا كان ميدانُها دائمًا الطبقات الأدنى منَ الناس، وهي لا تصوّر الواقع كما هو، وإنّما تترك لِحِسّ الشاعِر وعاطفته الحريةَ في أن تسهمَ في تصوير الواقع تصويرًا ممزوجًا بصدى ذلك الواقع على الحسّ والشعور، دون أن تترك الفرصة للعاطفة والخيال بأن تسيطر على عدسة الأديب، فتبعدها عن الواقع. [5]

---

[1]- جميلة بنت محمد الجوفان، الواقعية.. نظرة عن قرب، الرّابط:
https://www.alukah.net/literature_language/0/5427/#ixzz7DL3ftGaN

[2]- مقال جريدة الرّياض، ثقافة وفنون.

[3]- عبدالرّحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنّقد، دار الأدب الإسلامي، القاهرة،ط5، 2004م، ص69.

[4]- مجدي محمد وهبي، كامل المهندس، قاموس المصطلحات في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان.ج1،دت، بيروت، ص 78.

[5]- محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث تاريخ ودراسات، ج2. الرّياض،1990م ، ص201.

وبتتبّع مسار تطوّر مصطلح الواقعية وتبلور دلالاته في السّاحتين الفلسفية والأدبية، يمكن القول بأنّ الواقعية من منظور فلسفي "مذهب يلتزم فيه التّصوير الأمين لمظاهر الطبيعة والحياة كما هي، وكذلك عرض الآراء والأحداث والظّروف والملابسات دون نظر مثالي، ومن النّاحية الأدبية، مذهب أدبي يعتمد على الوقائع، ويعنى بتصوير أحوال المجتمع[1]،فيسعى بذلك النّص الأدبي -بما هو مدار اهتمامنا- إلى محايثة الواقع وتخييل تفاصيله، محاولا "أن يمثّل الأشياء بأقرب صورة لها في العالم الخارجي[2] ؛وعلى هذه الأساس عرّف(رينيه ويليك) الواقعية، بقوله: هي" التّمثيل الموضوعي للواقع الاجتماعي المعاصر[3]". في حدّ يركّب عضويا بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، فالواقعية في الأدب هي عملية تخييلية هدفها إعادة إنتاج الواقع بوعي ورؤيا خاصة تجسيدا لحقيقة الحياة بأدوات فنّية.

3- الأسباب التّاريخية لنشأة الواقعية:

تعود أسباب ظهورها إلى فترة ما بعد قيام الثّورة الفرنسية، أين ساد الاستغلال والظّلم نتيجة استئثار الطبقة البرجوازية برؤوس الأموال، الأمر الذي دفع بعض الأدباء لتبنّي معاناة ومطالب عامة النّاس ردّا على الظّلم الجديد الذي تسبب فيه البرجوازيون، فدعا هؤلاء الأدباء إلى عدم الاعتماد على الخيال المفرط من أجل الدفاع عن حقوق الإنسان، فالرّومانسية في نظر هؤلاء لا تقوى على تصوير الظّلم لاعتمادها على الخيال الذي هو في نظرهم نوع من الفرار من الواقع، كما عكست نفور النّاس من التّمثيل الغامض الذي هو من خصائص الرّومانسيين.

4- اتجاهات الواقعية:

أ- الرّواية والواقعية:

اقترن مصطلح الواقعية بالأدب في القرن التّاسع عشر بفضل الألماني(فريدريك شيلر)[4]، فقد كانت الرّواية إحدى محاور تجلياته الرّئيسة، وذلك تبعا لطبيعة تشكّل مكوّناتها السّردية التي تقابل نظام الحياة. وإذا تحدّثنا عن الواقعية بمفهومها العام نتبدّى أمامنا أعمال كثيرة وكبيرة، حاولت أن ترسم ملامح الواقع بكلّ اللّغات، مثل أعمال (تولستوي) و(غوركي)و(دستويفسكي) في روسيا، أعمال

---

[1]-إبراهيم مصطفى وآخرون(مجمع اللغة العربية)،المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدولية، القاهرة- مصر،ط.2004م، ص 1051.

[2]- -مجدي وهبة- كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت- لبنان، ط2، 1984م، ص 428.

[3]- رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، تر: محمد عصفور، مطابع الرّسالة-الكويت، ط1، 1987م ، ص165.

[4]- محمد مندور، في الأدب والنقد، نهضة مصر للطّباعة والنّشر، القاهرة ، مصر، ط . 1988م ،ص109.

(بلزاك)و(زولا) في فرنسا، أعمال (كاوابات)و(ميشيما) في اليابان، أعمال(همنغواي) و(شتاينبك)في أمريكا، أعمال (نجيب محفوظ) و(عبد الرحمن منيف) و(الطّاهر وطّار) في العالم العربي.

ونظرا لاختلاف سياقات إنتاج النّص الرّوائي وتعدّد الرّؤى تجاه الواقع، فقد انشطرت الواقعية الأدبية (بحسب الباحثين والنّقاد) إلى واقعيات، أبرزها:

ب - **الواقعية البرجوازية**

وهو اتجاه قاده تنظيرا وإبداعا مجتمع الثقافة الألماني بداية من النّصف الثّاني للقرن التّاسع عشر، وهو المجتمع الذي اعتبر واقعه جميلا وعقلانيا، واكتفى بدعوة الرّوائيين إلى نقل جوهر الواقع دون تدخل ذواتهم داخل العمل ليرى الجميع الأرض البكر التي لم يفترع خيراتها أحد، وأبرز من مثّل هذا الاتجاه صاحب (الأسلاف) (غوستاف فرايتاغ).

ج - **الواقعية النّقدية :**

أطلق هذا المصطلح استنادا إلى دراسات تحليلية لروايات (بلزاك) و(زولا) ليعمّم مفهومه على مجموع النّصوص التي تتناول الواقع بالتّشريح لتبيان المتناقضات، والمساهمة بوعي في حلّ المشاكل التي تتخبّط فيها أيّ أمّة من الأمم "وتنطلق الواقعية النّقدية من خلال نصوصها من رؤيا تجعل فيها الفرد في مواجهة مع المجتمع والدّولة والطبيعة، وبذلك توكل إليه أدبيّا مسؤولية مصير الجماعة.[1]

د - **الواقعية الاشتراكية** :

كان للأدب السّوفياتي- من خلال أعمال (بوشكين) و(غوركي) وغيرهما-أفضلية السّبق في الكتابة داخل هذا الإطار الإيديولوجي، قبل أن يمتّد تأثيره إلى مختلف بقاع العالم حيث الشّعوب التي ستتبنّى الاشتراكية، حيث الأدباء المؤمنين بالفكر الماركسي ومبادئه، الذين دعوا إليه خلو ما بعد توصيف ما أفرزته الرّأسمالية، وما خلّفه أصحابها في الشّعوب المستعَمرة من دمار، ومن أبرز الرّوائيين العرب الذين صنّفت كتاباتهم ضمن هذا الاتجاه: (حنّا مينه) و(يوسف إدريس) و(الطّاهر وطّار).

ه - **الواقعية التّشاؤمية**

هذا النّمط يطعن في البعد الخيّر في ذات الإنسان فجوهره شّر وأنّ الخير ما هو إلّا ظاهر خادع[2]، ويتجلّى بملاحظات بسيطة يقوم بها إنسان حصيف من خلال مواقف يومية تجمعه بغيره، أو من خلال استبطان الذات بلغة علماء النفس، وقد ترتّب على هذه المقولة الإيمان بأنّ الحياة لا تدعو إلى التّفاؤل،

---

[1]- ينظر: شايف عكاشة، اتجاهات النّقد المعاصر في مصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 198م،1ص 14.

[2]- نظر: عماد سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة، عمان - الأردن، ط1. 2009م ،ص: 242.

وبأ نّ المظلم فيها أكبر بكثير من المنير، وقد برّر أصحاب هذا الاتجاه موقفهم بالعودة إلى طبيعة الشّخص في حدّ ذاته، الذي يقوم بالفعل بناء على دوافع دفينة كإقدامه على العطاء وادعائه الكرم من أجل المباهاة، وإظهار الزّهد بسبب البخل[1].

5- خصائص الرّواية الواقعية

بالنّظر إلى ما يجمع هذه الاتجاهات، نجد أنّ النّقاد قد حدّدوا مجموعة من الخصائص التي تميّز الرّوايات الواقعية، والتي نذكر منها:

- الابتعاد عن التّكلّف في التّعبير، وعن استخدامات الرّمز الغامضة.
- الاستناد إلى الواقع في بناء ملامح الشّخصيات الرّوائية، والتّعريف بها وبانتماءاتها، مع الإفصاح عن هويتها سواء أكانت هذه الشخصيات افتراضية -جيء بها لتعّبر عن فئة أو شريحة معيّنة لها وجودها الحقيقي في الواقع- أم مرجعية لها وجودها السّابق عن النّص وتحيل على عالم خارجي محّقق ماديا ومعروف تاريخيا، وفي الحالتين تقّر الرواية الواقعية بالرّبط الدّائم للنّص وشخصياته بالواقع الذي تنطلق منه في عملية الكتابة وتعود إليه.
- تقديم خصائص الفترة الزّمنية المخيّلة بتفاصيلها الواقعية المميّزة لها.
- التّركيز على وصف الأماكن بدقّة.
- اللّجوء إلى استخدام العامية في الحوار، أو في بعض المواضع النّصية الأخرى (سرد / وصف) التي من شأنها وضع القارئ داخل عوالم نصية ذات علاقة وطيدة بالواقع المعاش.
- استخدام لغة تتساوق ومستوى الشّخصيات.
- برير الأفعال التي تقوم بها الشّخصيات داخل النّص الرّوائي.
- البناء المنطقي للأحداث، باعتماد نظام سببي تراتبي لا يخالف العقل، وذلك بعيدا عن أيّ خارق ينأى بالقارئ بعيدا عن عالمه الحقيقي.
- تصوير الحياة بجانبيها المظلم والمنير من أجل توصيف الواقع.
- الاهتمام باليومي، وبالطبقات الشّعبية المقهورة.

6- النّصوص الرّوائية العربية والاتجاه الواقعي

لقد تولّدت الرّواية العربية في تخوم انصهر فيها الواقع والمجتمع برؤى المبدعين الذين أخذوا موقفا رياديا بتفسيراتهم لأوضاع المجتمعات العربية ورغبتهم الملّحة في توليد الوعي، فتأتّت بذلك النّصوص

[1]- ينظر: محمد مندور، في الأدب والنقد. ص108 :وما بعدها.

الرّوائية ناضجة، مؤمنة بموقع الإنسان العربي الثّقافي والحضاري، بعيدا عن مثاليات الكتابة الغربية في عصورها المظلمة وبعيدا عن الكلاسيكيات العربية الممجّدة للماضي شكلا ودلالة.

ساهمت الظّروف العصيبة التي عرفتها المجتمعات العربية في تبّني مبادئ الواقعية وأطرها البنيويّة بمختلف اتجاهاتها للتّعبير عن الواقع وتقديم حلول للمشاكل التي يتخبّط فيها العالم العربي، فتنّزلت الرّواية العربية بهمومها وانشغالاتها محكومة بوعي الرّوائي العربي وهواجسه الفكرية والسّياسية والاجتماعية، قريبة من الواقع، فلبست بذلك الكثير من الرّوايات العربية لبوس الواقعية كاتجاه أدبي بالرّغم من ارتباطها المسبق بهذا الواقع وإيمانها به.[1]

بالرّغم من أنّ الفضل يعود إلى (محمد تيمور) و(محمود تيمور) و(الطّاهر لاشين) و(عيسى عبيد) في استنبات الواقعية وبثّها في نصوصنا السّردية العربية الحديثة، إلّا أنّ كتابات (نجيب محفوظ) كانت الأكثر نضجا، فمن خلال (القاهرة الجديدة)، (خان الخليلي)، (زقاق المدقّ)،(السّراب)(بداية ونهاية)، (بين القصرين،) (قصر الشّوق)، (السّكرية) ظهرت الواقعية الرّوائية العربية في حلّة مكتملة، من خلال حرص المبدع على نمذجة المجتمع المصري، ووصف حالاته وانشغالاته المختلفة وتسمية الأماكن بما تعرف به حقيقة، والاهتمام باليومي والمحلّي والمهمّش والمقموع، ونقل التّجربة الحقيقية المعاشة.

انتمت كتابات محفوظ الرّوائية(الآنفة الذّكر) خلال أربعينيات القرن الماضي إلى الواقعية النّقدية التي ظهرت بعيد الحرب العالمية الثّانية مباشرة، غير أنّ هذا الاتجاه لم يتفرّد بالفضاء الرّوائي العربي، إذ أردف بأعمال الواقعيين الاشتراكيين في مطلع الخمسينيات من ذات القرن، ومن ضمن الأسماء المبدعة داخل هذا الاتجاه الواقعي (الاشتراكي) نجد: (عبدالرحمن الشّرقاوي)، (الطّاهر وطّار) (يوسف إدريس) (فتحي غانم)، (عبدالحميد بن هدوقة) وغيرها من الأسماء.

وتجدر الإشارة في هذا المساق إلى أنّ كثيرا من الأعمال الرّوائية العربية قد تمترست خلف اتجاهين كبيرين للواقعية، هما الواقعية النّقدية والواقعية الاشتراكية، أمّا بالنسبة للاتجاهات الأخرى، فقد بقيت محصورة في مناطق جغرافية غير عربية ساهمت السّياقات الخارجية في بلورتها، ودلّل عليها النّص الرّوائي بإمكاناته البنيوية والمعنوية.

لقد طرح النّقاد سؤال أهلية الرّواية الواقعية في أن تكون نموذجا مكتملا يمثّل الرّواية العربية في أبهى حلّته، وقد نزع الكثير منهم إلى تثمين ما قدّمته من إيجابيات لا يمكن إنكارها، نحو الانطلاق من الواقع، والعمل على قراءته، وتحليل ظواهره، وحلّ مشكلاته، وكذا خلق ما يسمّى بالأدب الملتزم

[1]- ينظر: السّعيد الورقي، اتجاهات الرّواية العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د ت / ص73.

والرّواية الملتزمة داخل الخزانة السردية العربية الحديثة والمعاصرة، إلّا أنّهم رفضوا في الوقت نفسه فوتوغرافية الواقعية، أو ادعاء أصحابها ذلك، فلا بأس بحسبهم ربط الأدب بالحياة، والانطلاق من الواقع والتعبير عنه لترقيته، لكن دون أن نهمل الجانب الجمالي والفنّي والعاطفي والخيالي الذي لا تستقيم الرّواية دونه، لأنّ الملاحظ أنّ هناك الكثير من الأدباء قد جعلوا نصوصهم السّردية مجرّد مطيّة إيديولوجية، هدفها إيصال الحمولة الفكرية والدعوة إليها، والتّقزيم من مُخالفيها، وهو ما نلحظه بشكل جليّ في عند كتّابات الواقعيين الاشتراكيين.